الفصل الرابع

الكتب والمكتبات في بلاد الشرق الأدنى في العصور القديمة

أصل المكتبات :

إن بدايات المكتبات، مثل بدايات الكلام والكتابة، غير معروفة تماماً، ولكنها على خلاف الكلام والكتابة، بدأت في العصر التاريخي. وليس من الممكن إعطاء الزمن الذي بدأت فيه المكتبات بالظهور بدقة ولا المكان، وكل ما يمكن قوله هو أن المكتبات ظهرت لأول مرة في زمان ما في الشرق الأدنى.

هذا وإن أقدم المكتبات كانت مزيجاً من المواد الكتابية والوثائق الحكومية والمحفوظات الحكومية والترانيم الدينية. وعلى الرغم من أن أقدم المكتبات في العالم وجدت في المعابد، فإنه ليس من الحكمة أن نؤكد أن هذا النوع من المكتبات هو أقدم أنواع المكتبات أو أكثرها أهمية. وقد وجدت ثلاث مجموعات من المواد المكتوبة : المجموعة الأولى هي مجموعة المعابد، والثانية المحفوظات والسجلات الحكومية، والثالثة هي مجموعة سجلات الأعمال المنظمة. ولقد حفظت المواد في المكتبة، بصرف النظر عن طبيعتها، من أجل استعمالها في المستقبل، لذلك احتاج الأمر إلى أن تنظم تنظيماً منطقياً يمكن من استعمالها بسهولة ويسر، ولا سيما عندما تبدأ المواد تكثر وتغزر.

لقد حوت المعابد أول أمرها المكتبات، وذلك من أجل حفظ الأدب الديني الذي ازداد مع الأيام غزارة، وأصبح من الصعب إن لم يكن من المستحيل حفظه كله بالذاكرة، وأصبح من الضروري تسجيله وحفظه في مكان معين وتسليمه إلى الأجيال القادمة، وكان ذلك أصل مكتبة المعبد، هذا وإن مكتبات المعابد هي أقدم أشكال المكتبات في مصر وبلاد الرافدين وبلاد اليونان وأكثرها أهمية.

وتأتي سجلات الدولة ووثائقها بعد مكتبات المعابد مباشرة، ذلك أن حفظ سجلات

الضرائب والجزية كان ضرورياً من أجل قمع الغش والسرقة، ومن أجل إقامة العدل ومنع الظلم. وينطبق الشيء نفسه على السجلات العقارية ونصوص القوانين والمراسيم والقرارات وما شابه.

كذلك احتاجت حركة التجارة الداخلية والخارجية في البلاد المتقدمة حضارياً مثل سورية ومصر وبلاد الرافدين إلى حفظ سجلات التجارة وسجلات إدارة الأعمال وما أشبه، وذلك من أجل غابات اقتصادية بحتة. ويمكن أن نعدّ هذا النوع من المجموعات مكتبات خاصة إلى حد ما.

وإن أعظم العوامل التي ساهمت في تطور المكتبات وفي حفظ المواد فيها وفي طرق تنظيمها هو طبيعة المواد التي استعملت في الكتابة وتطورها عبر العصور، فترتيب مكتبة المواد فيها رقوق وجلود يختلف عن ترتيب مكتبة المواد فيها لوحات فخارية مثلاً.

المكتبات في بلاد الرافدين :

إن من الصعب أن نجزم بأسبقية مصر أو بلاد الرافدين في مضمار المكتبات، وهل وجدت أقدم المكتبات في مصر أم في بلاد الرافدين. ولكن الشيء المؤكد أن أولى المكتبات بدأت في الظهور في هذين القطرين اللذين يُعدان مهد الحضارة الإنسانية في الألف الثالثة ق.م. بدأ سكان وادي الرافدين يسجلون أعمالهم ويدونونها على لوحات فخارية وبدؤوا يجمعونها وينظمونها في مكتبات منذ الألف الثالثة ق.م. ومعلوماتنا عن هذه المكتبات مستمدة من اللوحات الفخارية التي استخدمت بكميات كبرى من أنقاض المدن السومرية والبابلية والآشورية، ذلك أن أصل رموز الكتابة المسمارية مكن العلماء من قراءة هذه الكتابة وأصبح بالإمكان أن نروي بشيء من الدقة قصة جمع اللوحات وكيف نظمت في مكتبات.

لقد سكن السومريون ـ وهم شعب غير سامي ـ جنوبي بلاد الرافدين منذ الألف الرابعة ق.م. على حين سكن القسم الأعلى منها الأكاديون، وقد نجح سرجون الأكادي في توحيد البلاد وتأسيس إمبراطورية. وتفاعلت حضارة الأكاديين الساميين مع السومريين، وظهر من هذا التفاعل الحضارة البابلية التي بلغت ذروة عالية من التطور زمن حمورابي العظيم (حوالي ١٦٠٠ ق.م) الذي أعاد بناء الإمبراطورية وأصدر القانون الشهير باسمه.

كذلك أسس الآشوريون الذين نبعوا في شمالي بلاد الرافدين إمبراطورية كبرى

واهتموا بالأدب وأسسوا مكتبات كبرى بين سنتي ٨٥٠ و٦٥٠ ق.م. ثم قضت غزوات الكلدانيين والميديين على هذه الإمبراطورية وغرقت المنطقة في فوضى ونسيان طويل ولم يطلع العالم على منجزات هذه الشعوب إلا في العصور الحديثة بفضل جهود العلماء الذين استخرجوا اللوحات الفخارية من أرض الرافدين وقرؤوا محتوياتها.

ولقد وجد مجموعات كبرى من اللوحات الفخارية في أنقاض كثير من المدن كما في مدن أوروك وتللو ولاغيش ونيبور (كلها تقع جنوبي العراق الحالي) وقد اكتشف على طول وادي الرافدين أكثر من عشر مجموعات كبرى ضخمة من اللوحات الفخارية يبدو أنها كانت مكتبات معابد أو مكتبات قصور ملكية. كما وجدت مجموعات صغرى من اللوحات الفخارية لا تحصى ولا تعد ويبدو أنها كانت مكتبات خاصة أو مكتبات سجلات ومحفوظات. كذلك نظم حمورابي القوانين وأصدر قانونه المشهور ووضعت المحفوظات في المعابد والقصور الملكية ونظمت ليسهل الاستفادة منها. ولقد أصبحت الصورة أوضح زمن الآشوريين، ذلك أنه وجدت لديهم مكتبات حقيقية صنفت حسب الموضوعات ووضع لها فهارس بدائية. وتعد المكتبة التي أسسها سرجون الثاني (متوفى سنة ٧٠٥ق.م) في قصره في خورسباد تدشيناً لعصر مزدهر من عصور ازدهار المكتبات. ولقد طور حفيده آشوربانيبال (٦٦٨–٦٢٧ق.م) المكتبة لدرجة أصبحت معها من أعظم مكتبات العالم القديم وأهمها. فقد نقل آشوربانيبال عاصمته إلى نينوى، وأسس في قصره مكتبة حوت أكثر من ثلاثين ألف لوحة فخارية. ولقد أوجد في قصره جهازاً كاملاً من النقلة والنساخ مهمتهم نقل وترجمة السجلات من اللغات الأجنبية إلى الآشورية. وكانت مكتبة مفتحة الأبواب لجميع الباحثين. ولقد شغلت المكتبة عدداً كبيراً من الغرف في القصر الملكي. ويبدو أنه خصصت بعض الغرف لبعض الموضوعات؛ فقد خصصت غرفة للتاريخ وأخرى للعلاقات الدبلوماسية وهكذا.

كانت اللوحات الفخارية في مكتبة آشوربانيبال تحفظ في جرار، وترتب الجرار إما في صفوف، أو توضع على رفوف. ووجد قرب كل مدخل غرفة سجل بيبليوغرافي للأعمال الموجودة في تلك الغرفة؛ يشمل عنوان العمل، وعدد اللوحات المخصصة له ومكان وجوده مع ذكر الصف والجرة.

وقد سلمت مكتبة آشوربانيبال وهي تحوي كثيراً من الملاحم والقوانين والطقوس الدينية التي نقلت إلى الآشورية من نصوص موغلة في القدم. وعندما هاجم الميديون

والكلدانيون نينوى سنة ٦١٢ ق.م لم يهتموا بالمكتبة ودمروا القصر، ودفنت المكتبة تحت الأنقاض وظلت مكانها حتى القرن التاسع عشر عندما تمكنت الحفريات التاريخية والعلمية أن تجلبها للنور من جديد.

وعلى الرغم من أن مكتبة آشوربانيبال كانت أشهر وأهم مكتبة في بلاد الرافدين، إلا أنها لم تكن الوحيدة فقد وجد في أنقاض مدن بلاد الرافدين عدد كبير جداً من المكتبات يتراوح تاريخها بين سنتي ٢٠٠٠ و٥٠٠ ق.م وأغلب هذه المكتبات كانت مكتبات تابعة للقصور والمعابد. كذلك وجد مكتبات خاصة. من هذه المكتبات المهمة مكتبة «أور» التي وجدت في أنقاض مدينة أور وسميت «بيت الألواح الكبير» ويعود تاريخها إلى حكم أورنامو في حدود سنة ٢٠٠٠ ق.م. كما وجدت مكتبة حقيقية في أنقاض مدينة ماري الواقعة الآن قربَ البوكمال في سورية.

ولقد اختلفت مكتبات المعابد في طبيعة محتوياتها واستعمالاتها عن مكتبات القصور ومكتبات الدولة. فقد كان المعبد مكاناً للعبادة وللتعليم ومركزاً لنشاط اقتصادي واسع. ولذلك وجدت فيه مواد تخدم هذه الأغراض مثل تاريخ «الآلهة» والملاحم ونصوص الترانيم والشعائر الدينية والسجلات التجارية والاقتصادية والمعاجم وكتب النحو والصرف وكتب هندسة وحساب وفلك وتنجيم، كما وجد في المكتبات الآشورية ترجمات راقية لأشهر الأعمال الأدبية من مختلف اللغات.

وتختلف المكتبات البابلية والآشورية في طبيعتها عن المكتبات المعروفة ، وذلك بسبب المواد التي استعملت ككتب، ونقصد بذلك اللوحات الفخارية. فقد كانت اللوحات الفخارية توضع في منطقة معينة، وكانت مرتبة بطريقة من الطرق ووضعت بعهدة أشخاص متمرنين. وقد وضع بعض اللوحات في بعض المكتبات على رفوف، ورص بعضها في رفوف ضيقة، ورتب بعضها في سلال أو وضع في جرار فخارية. ويختلف حجم اللوحات الفخارية اختلافاً كبيراً. إلا أن الحجم الشائع هو ٣×٦ بوصة للوحة الواحدة. ولما كانت اللوحة الواحدة تستوعبُ أكثر من محتويات صفحتين فقد وجب استعمال عدد من اللوحات من أجل أغلب الأعمال. لذلك رقمت جميع اللوحات المستعملة من أجل تسجيل عمل واحد رقماً متسلسلاً من أول العمل إلى نهايته، وتحوي اللوحة الثانية في أعلاها أول كلمة تبدأ بها هي وآخر كلمة موجودة في اللوحة السابقة، وتوضع جميع اللوحات الحاوية لعمل واحد في مكان واحد. وقد وجد في بعض

المجموعات نوع من الفهرس موجود على اللوحة الأولى يذكر فيه اسم المالك والكاتب والسطر الأول والكلمة الأولى وعدد اللوحات المستعملة في تسجيل هذا العمل.

وكان أمين المكتبة أو كما يسمونه «حارس الكتب» شخصاً مثقفاً ومعداً لهذا العمل. فقد كان من الواجب أن يكون متخرجاً من مدرسة الكتبة ومن ثم أن يكون متدرباً على نسخ السجلات وحفظها وبعد ذلك يمكن استخدامه أمين مكتبة مساعداً. وقد ورد اسم أحد أمناء المكتبات البابليين واسمه آميت آنو الذي كان أميناً لمكتبة أور الملكية في حدود ٢٠٠٠ ق.م. ولعله من أقدم أمناء المكتبات المعروفين في التاريخ.

ولقد انتقل إشعاع المكتبات البابلية والآشورية إلى جيرانهم وبخاصة الحثيين الذين استعملوا الكتابة المسمارية واللوحات الفخارية، وأسسوا عدداً من المكتبات ودور المحفوظات في عدد من مدنهم وخاصة عاصمتهم بوغازكوى.

لقد ساهم سكان بلاد الرافدين مساهمة كبرى في إيجاد المكتبات والسجلات المكتوبة، فقد أوجدوا وطوروا نظاماً للكتابة ومادة كتابية وأماكن لحفظ المواد المكتوبة في المكتبات ودور المحفوظات. وإن مواد هذه المكتبات التي وصلتنا هي التي مكنتنا من الاطلاع على تاريخ ٣٠٠٠ سنة من تاريخ سكان وادي الرافدين. لذلك يمكن القول إنه لا يوجد عصر من عصور التاريخ القديمة كعصرنا هذا قدمت فيه المكتبات ودور المحفوظات معلومات ثمينة منظمة؛ كانت المفتاح الحقيقي لاكتشاف حضارة امتدت فترة طويلة من الزمن.

المكتبات في مصر القديمة:

إن أقدم المكتبات المعروفة في عصر الفرعونية كانت ذات صلة وثقى بالقصور والمعابد، أى التي كانت ملحقة بالقصور والمعابد، كما هو الحال عليه تماماً في بلاد الرافدين. ويبدأ التاريخ المدون في مصر في حدود ٣٠٠٠ ق.م.

ولقد بدأت السجلات تحفظ في مصر منذ عهد مبكر، وخصصت في المعابد والقصور غرف خاصة لحفظ السجلات والمخطوطات الرسمية. وكانت هذه السجلات هي سجلات الحكومة ووثائقها والمواد المتعلقة بالمعابد وإدارة الأعمال التجارية وترتيبها وجعلها جاهزة للاستعمال الرسمي. ثم أضيف إليها فيما بعد مواد أخرى كالتاريخ والأدب والقصص الديني. وكان ذلك البدايات الأولى لظهور المكتبات. وكانت المكتبات ودور

المحفوظات تحت إشراف الكتبة المتمرسين المتمرنين. ونجد ذكراً «لبيت الكتابات»، في سجلات الأسرة الخامسة (حوالي ٢٣٠٠ ق.م). ويمكن أن يوجد في قبور عدد من كبار الموظفين ألقاب كالتالي : «كاتب الكتابات المقدسة» و«حارس سجلات الملك».

ولقد اعتبر عمل الكتبة الذي هو الكتابة عملاً مقدساً. ولكن الكتابة والقراءة انتشرتا في مصر بعد سنة ١٢٠٠ ق.م ووجدت أدلة تثبت وجود مكتبات في منازل أغنياء التجار والنبلاء. ومن النصوص القديمة والأدلة المادية التي وصلتنا عن هذه المكتبات يمكن أن نرسم ملامح المكتبات في مصر القديمة.

فقد ورد ذكر «بيت الكتابات» في وثائق ونقوش من عهد خوفو؛ باني الهرم الأكبر من فراعنة السلالة الرابعة (حوالي ٢١٠٠ ق.م). وكانت تطلق ألقاب لها دلالتهـا على أماكن وجود الكتب مثل «قاعة كتابات مصر» و«بيت الكتابات المقدسة». ولقد ثبت أن رمسيس الثاني (حوالي ١٣٠٠ق.م) كان عنده مكتبة في قصره في طيبة تضم حوالي ٢٠ألـف ملف، وكانت تسمى «مكان إنعاش الروح» وهذا يدل على طبيعة محتوياتهـا الدينيـة والفلسفية والأدبية. ونحن نعلم اسم أحد أمناء هذه المكتبة وهو آمون ـ أوم ـ هاوت Amen -em-haut .

وتعد مكتبة الفرعون أخناتون؛ الذي جعل عاصمته في تل العمارنة أكبر مكتبة عندنا معلومات مؤكدة عنها. فقد خصص هذا الفرعون الذي حكم في حدود ١٣٥٠ق.م غرفة في قصره الملكي لتكون مكتبة اسمها «مكان سجلات قصر الملك». وتتألف محتويات المكتبة من لوحات فخارية، أو على الأقل اللوحات الفخارية هي كل ما تبقى من المكتبة. هذه اللوحات هي رسائل دبلوماسية تبودلت بين حكام مصر آنذاك وبين غيرهم من الحكام والأمراء الداخليين والخارجيين.

ولقد بدأت تظهر مكتبة المعبد كمجموعة من الكتابات الدينية والنقوش الدينية. ويبدو أن «**كتاب تحوت**» الذي ينسب إلى التعليم والعلم المصري كان على الغالب النواة التي تمركزت حوله أولى مجموعات مكتبات المعابد، ثم أضيف إليها كتاب الموتى وكتب «الآلهة» المصرية الأخرى مع تعليقاتها والشروح عليها وما شاكل. وكان هناك كتب تحوي طقوس الدفن وما يقال عند دفن الميت والاحتفالات التي ترافق هذا العمل ـ كما كان هناك مسرحيات مقدسة مثل مسرحية أوزيريس وقد بدأت هذه بالظهور حوالي

١٧٥٠ق.م. ثم اغتنت محتويات مكتبات المعابد تدريجياً بمواد علمية كالفلك والطب والتنجيم وما ماثل ذلك. وهكذا أصبحت مكتبة المعبد في مصر مكتبة بالمعنى الكلي للكلمة، ولم تعد مجرد مخزن لمحفوظات المعابد.

وكما كان الحال عليه في بلاد الرافدين، كان المعبد في مصر مكاناً لتعليم وتدريب الكهنة الكتبة، وهو المكان الأولي والأساسي للتعليم في مصر. وكانت تلحق بكل معبد مهم مدرسة ومكتبة، وهذه المكتبات كانت تمتلك أعمالاً ونصوصاً مصدرية من أجل حسن سير عملية التعليم، كما كانت تمتلك الكتب المقررة وكتب النحو والصرف والمعاجم وكتب الاقتصاد والتاريخ والأدب والأخلاق.

ولقد ازدهرت طوال عهود الحضارة المصرية، بجانب مكتبات المعابد والقصور، مجموعات من المكتبات الخاصة امتلكها أفراد كثيرون، وهي تتراوح بين عدد قليل من ملفات البردي إلى مجموعات ضخمة من الملفات وذلك في بيوت التجار والنبلاء والأغنياء. هذا وإن المكتبة الخاصة تنوعت في شكلها وحجمها ونوع الكتب فيها كي تناسب ذوق واهتمامات وميول مالكها.

كذلك نبحث هنا المكتبات التي وجدت في سورية وفلسطين، وذلك لاتصال تاريخ هذين القطرين بتاريخ مصر مدى العصور، ولأن التأثيرات المصرية كانت بارزة كل البروز في سورية وفلسطين.

ولقد كانت المعلومات والأخبار في فلسطين تتداول شفهياً وتحفظ في الذاكرة ويورثها الآباء للأبناء لمدة أجيال عديدة. وفي التوراة نفسها إشارات إلى مجموعات من الكتابات المقدسة منذ عهد سليمان، فقد حفظ في معبد اليهود في القدس الألواح الاثناعشر وكتب الشرائع وكتب موسى وكتب الأنبياء.

وكانت هذه الأشياء موضوعة في قدس الأقداس في المعبد ولا يطلع عليها إلا عدد قليل من كبار الكهنة. ولقد دمرت هذه المجموعة بسبب الحروب الخارجية والثورات الداخلية، وعلى الرغم من أنه كان يعاد جمعها كانت تدمر من جديد. ولقد حوت أغلب معابد اليهود مجموعة دينية ومجموعة تعليمية لتعليم الكهنة وإعدادهم لمهنتهم.

ولقد اكتشفت في رأس الشمرة ـ وهي مملكة كنعانية وجدت على ساحل سورية الشمالي وازدهرت في الألف الثاني قبل الميلاد ـ مجموعة معبدية وتملك كل الصفات

التي تبيح إطلاق اسم مكتبة عليها. فقد وجد مجموعة كتب في القصر الملكي هي عبارة عن لوحات فخارية كتبت بخط مسماري، أما اللغة فكنعانية أوغاريتية، وهذه اللوحات الفخارية هي مجموعة رسائل دبلوماسية ومعاهدات وقوانين وشرائع. ووجد مجموعة أخرى في منزل كبير الكهنة وهي مكتبة دينية في معظمها، ولكن وجد بينها معاجم متعددة اللغات وملاحم وسحر وتاريخ وطب وعلوم. ومن المهم أن نلاحظ أنه وجد بين النصوص الدينية نصوص تشبه بشكل تام في أسلوبها ومحتوياتها بعض أقسام العهد القديم.

أما قضية الشروط المادية للمكتبات المصرية فنحن لا نعرف عنها شيئاً ذا غناء. ويبدو أن ملفات البردي كانت توضع على رفوف ضمن الغرف، ولكن لا نعرف شيئاً عن طريقة ترتيب الملفات على الرفوف، وقد جلدت بعض الملفات بجلود مصنوعة من جلد الحيوان أو القماش، على حين كان يوضع بعضها الآخر في أوعية فخارية، وقد وجد في بعض المكتبات الكبرى لائحة بأسماء الكتب الموجودة في غرفة المكتبة ملصقة على جدار المكتبة من الخارج.

ولقد استعمل المصريون، مادة كتابية، بجانب البردي، مواد أخرى مثل اللوحات الفخارية وجلود الماشية. كذلك كتب قدماء المصريين على لوحات من الشمع أو على رقاق الخشب. وكتبوا كثيراً على الجدران وبخاصة على جدران المعابد والقبور.

ولقدكانت وظيفة أمين المكتبة في مصر القديمة وظيفة مهمة؛ ولا يشغلها إلا شخص مثقف ثقافة عالية، لقد كان شخصاً ذا أهمية سياسية عليا، وقد اختص باختصاص آخر غير الكتابة. وقد أخذنا معلوماتنا عن أمناء المكتبة من نذور الموتى وطقوس الدفن حيث كان يوضع مع الشخص المتوفى في قبره ملفات تحوي اسمه وألقابه ووظائفه التي كان يشغلها في الحياة. كذلك استقينا معلوماتنا من كتب الموتى، وهي كتب تحوي طقوساً جنائزية وأدعية تقال لجميع الأموات، ولكنها كانت تختلف في طولها حسب أهمية الشخص المتوفى وثروته وقدرة ورثته على الدفع. كذلك استعمل البردي في القبور على شكل أغلفة لتغليف أجساد المومياء ووجدت عليه كتابات كثيرة، وكل ذلك كان مصدر معلوماتنا عن الحضارة المصرية بشكل عام والمكتبات بشكل خاص.

من هذه العرض المختصر نلاحظ أن الحضارتين البابلية ـ الآشورية والمصرية أولتا المكتبات عناية كبرى ووجد لديهما أنواع متقدمة من المكتبات كالمكتبات العامة والخاصة

ومكتبات المعابد ومكتبات المدارس وحتى المكتبات المتخصصة كمكتبات الطب.

ولقد استمرت العناية بالمكتبات والكتب في تلك البقعة من العالم ولا سيما في مصر تحت حكم البطالمة الذين حكموها لفترة ثلاثة قرون (من الثالث إلى الأول ق.م) وبلغت هذه العناية ذروتها في مكتبة الإسكندرية العظيمة، كما سنرى في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

obeikandl.com